العرب
الأربعاء 2021/04/28
السنة 43 العدد 12044

فراغان فلسطيني.. وإسرائيلي

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

تذكّر القدس وانتفاضة أهلها في وجه الاحتلال بوجود قضيّة فلسطينية يصعب التخلّص منها من دون تسوية عادلة ومعقولة تأخذ في الاعتبار وجود شعب على الخريطة السياسيّة للشرق الأوسط. القضيّة قضيّة شعب حاضر بقوّة في السياسة وباق خارج الجغرافيا. هذا أمر مخالف لكل منطق التاريخ.

من أجل التخلّص من القضيّة لا مفرّ من التخلّص من شعب بكامله. هذا مستحيل. هذا ما تجاهله بنيامين نتنياهو الذي بات مستقبله السياسي مطروحا بعدما اعتقد طويلا أن الوقت سيجعل الشعب الفلسطيني ينسى قضيّته.

عاجلا أم آجلا سيكون على الفلسطينيين البحث عن قيادة مختلفة أقلّه في الضفّة الغربيّة في غياب القدرة على تخليص قطاع غزّة من براثن «حماس» التي تنتمي إلى الإخوان المسلمين

ليست الانتفاضة المستمرّة منذ بضعة أيّام في القدس سوى تأكيد لحيويّة الشعب الفلسطيني ورفضه الاستسلام على الرغم من كلّ المصاعب التي يواجهها، بما في ذلك صعوبة إجراء انتخابات تشريعيّة الشهر المقبل تمهيدا لانتخابات رئاسيّة في الصيف. ليس ما يشير إلى أن محمود عبّاس (أبومازن) رئيس السلطة الوطنيّة الفلسطينية متحمّس للانتخابات. كذلك، تبدو أولويات "حماس" مختلفة عن ضرورة إجراء انتخابات تشريعية للمرّة الأولى منذ 2006. على الرغم من ذلك، ليس مستبعدا إجراء الانتخابات في موعدها، بغض النظر عن وجود جهات أميركية تدفع في اتجاه التأجيل.

كان لافتا ترافق انتفاضة القدس مع فراغين سياسيين. الأوّل إسرائيلي والآخر فلسطيني. يعبر عن الفراغ الإسرائيلي العجز عن تشكيل حكومة بعد أربع عمليات انتخابيّة في عامين. ثمّة صحف إسرائيلية تحدّثت أيضا عن فراغ أمني في القدس في ظلّ تجاذبات بين المسؤولين عن الأمن في المدينة على مستوى البلدية والشرطة ووزارة الداخليّة. فوق ذلك كلّه، يبدو واضحا أنّ القرار في إسرائيل صار في عهدة المؤسستين العسكريّة والأمنية اللتين تتولّيان إدارة كلّ ما له علاقة بالملفّ الإيراني، خصوصا في مجال التنسيق مع الجانب الأميركي وعرض الهموم والأولويات الإسرائيلية..

يتبيّن أن السنوات الطويلة التي أمضاها "بيبي" في موقع رئيس الوزراء كانت سنوات الجمود السياسي بهدف خلق أمر واقع على الأرض. لم يتغيّر شيء في رئيس الوزراء الإسرائيلي الذي يتأكّد يوميا أنّه أسير معتقدات معيّنة غير قابلة للتطور. أكّدت ذلك انتفاضة القدس. عمل "بيبي" كل ما يستطيع من أجل تكريس القدس عاصمة أبديّة لإسرائيل. نجح في حمل الإدارة الأميركية السابقة على نقل السفارة من تلّ أبيب إلى القدس وفي انتزاع اعتراف منها بالمدينة كلّها عاصمة لإسرائيل. في نهاية الأحداث، تبيّن أنّه لا يزال في القدس، من سكّانها العرب، من هو مستعد لرفض الاعتراف بالأمر الواقع..

ليس معروفا ما الذي يمكن أن يفضي إليه الفراغ السياسي في إسرائيل. لكن الأكيد أن مسألة إيجاد حلّ أو تسوية مع الجانب الفلسطيني لا يمكن إلّا أن تطرح يوما. ما العمل بثمانية ملايين فلسطيني يعيشون بين البحر والنهر، أي بين البحر المتوسّط ووادي نهر الأردن؟

عاجلا أم آجلا، سيكون على إسرائيل الإجابة عن هذا السؤال. ولكن عاجلا أم آجلا أيضا، سيكون على الفلسطينيين البحث عن قيادة مختلفة، أقلّه في الضفّة الغربيّة، في غياب القدرة على تخليص قطاع غزّة من براثن "حماس" التي تنتمي إلى الإخوان المسلمين والتي تحظى بدعم إسرائيلي لسياسة إطلاق الصواريخ وتحويل القطاع إلى سجن في الهواء الطلق لمليوني إنسان.

يُفترض في الفلسطينيين الموجودين في الضفّة الغربيّة التفكير مليّا في كيفية ملء الفراغ السياسي القائم وذلك بعدما فقد "أبومازن" أعصابه في الاجتماع الأخير للجنة المركزيّة لحركة "فتح"، مباشرة بعد إعطائه أرقاما يفهم منها تقدّم اللوائح التي يدعمها محمد دحلان وناصر القدوة على قائمة "فتح". دفع الثمن عضو اللجنة المركزيّة عباس زكي الذي طرح فجأة ضرورة إرسال برقيّة تهنئة إلى الحزب الشيوعي الصيني في مناسبة مرور مئة سنة على تأسيسه. كانت النتيجة شتائم من النوع الثقيل أطلقها رئيس السلطة الوطنيّة الفلسطينية متناولا الصين وروسيا وأميركا و"كلّ العرب".

وجد من يسجّل المداخلة ذات الطابع التاريخي لـ"أبو مازن"، وهي مداخلة مثيرة للضحك جرى توزيعها بشكل رسائل على "واتساب". ظهر رئيس السلطة الوطنيّة الفلسطينية حانقا بالصوت والصورة. لم تنفع، بالتأكيد، كل المحاولات التي بذلها محيطون به لنفي حصول الحادث، علما أن الطفل الصغير يعرف أنّ هذه طريقة محمود عبّاس، وهي طريقة تهكّمية في التعاطي مع الأحداث عندما تدور الأمور لغير مصلحته ويبدو عليه الانفعال.

بعض الهدوء والتروّي ضروريان في مثل هذه الأيّام، خصوصا أنّ التغيير لا بدّ أن يحصل فلسطينيا. الأكيد أن مثل هذا التغيير لا يحدثه شخص مثل مروان البرغوثي الذي يمضي عقوبة في سجن إسرائيلي. البرغوثي مناضل، لكنّ النضال شيء والسياسة شيء آخر. فإذا كانت إسرائيل التي تدفع حاليا ثمن التحولات التي طرأت على مجتمعها المنقسم بين اليمين المتطرّف واليمين الأكثر تطرّفا، يبدو ضروريا أن يبحث الفلسطينيون عن شخصيات مختلفة عاقلة تتعاطى مع الأحداث التي يبدو أنّ المنطقة كلّها، وليس الضفّة الغربيّة وحدها، مقبلة عليها. أين الضرر إذا استعان الفلسطينيون بأشخاص مثل الدكتور سلام فيّاض رئيس الوزراء السابق الذي لم يتحمّله "أبومازن". لم يتحمّله بسبب إصراره على بناء مؤسسات فلسطينية تستطيع التعاطي مع العالم الخارجي وتتمتع بحد أدنى من الشفافيّة.

ماذا بعد الفراغ الإسرائيلي والفلسطيني؟ الجواب أنّ الإدارة الأميركية ستكون مستعدّة بعد سنة، في أقلّ تقدير، لطرح مبادرات ومحاولة البحث عن تسوية استنادا إلى خيار الدولتين. ستجد إسرائيل طريقة للملمة أوضاعها الداخليّة والتخلّص من بنيامين نتنياهو وارثه بطريقة أو بأخرى. في انتظار ذلك وفي انتظار تراجع اليمين واليمين المتطرّف، من الطبيعي أن يبحث الفلسطينيون عن قيادة جديدة. قيادة تعرف مصلحة الشعب الفلسطيني، قيادة على تماس مع ما يدور في العالم والمنطقة، قيادة تأخذ في الاعتبار أن انتفاضة القدس ذات معنى. قد يكون المعنى الأوّل أن هناك شعبا فلسطينيا يمكن الرهان عليه وعلى صموده خارج "حماس" وصواريخها التي لا تخدم سوى إسرائيل.

لقد آن لهذه السلطة أن ترحل، ولفارس الفشل أن يترجل

علي الصراف
كاتب عراقي

مثلما فاض الكيل بالرئيس الفلسطيني محمود عباس حد أنه صار يخاطب اجتماعات قيادة "فتح" بالسباب والشتائم، فقد فاض به الكيل حد أنه صار يبحث عن ذرائع لتأجيل الانتخابات.

إسرائيل قد ترفض إجراء الانتخابات في القدس، ولكن ما نقصت على المقدسيين الوسائل لكي يحموا انتخاباتهم من دون الحاجة إلى الحصول على إذن من قوات الاحتلال. إلا أن الرئيس عباس يريد أن يحرق المراكب، بهذه الذريعة أو بغيرها، لأن مركبه هو الذي يغرق.

يعرف الرئيس عباس تماما، أن سلطته زائلة، وهو يبحث عن قشة لكي يتعلق بها. ويعرف أيضا أنه ما من فصيل فلسطيني إلا ويريد للانتخابات أن تجري في موعدها المحدد، رضيت إسرائيل أم لم ترض. وباستثناء بعض الذين يتصرفون كمطايا له، وهم قلة، فإن قيادة "فتح" نفسها لن تغامر بالوقوف ضد إرادة شعبها. الكل يعرف أن هذه مغامرة سوف تؤدي ليس إلى غرق سلطة الرئيس عباس، بل إلى غرق مكانة حركة "فتح" بين أبناء شعبها. والصامتون الصابرون على الرئيس عباس في قيادة "فتح"، لن يصمتوا إلى الأبد. سوف يخرج من يقول له كفى، ولقد حان الوقت لكي ترحل.

المقدسيون الذين وقفوا بوجه الاحتلال من أجل استئناف حقهم في التجمع في ساحة باب العامود، لن تنقصهم الوسائل لكي يواجهوا الاحتلال في كل مكان توضع فيه صناديق الاقتراع. سوف يخوضون معركة حرية أمام أنظار العالم بأسره، ولتكون فضيحة ما بعدها فضيحة لمهزلة "الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط" التي تحرم مواطنين من حقهم في الانتخاب. هذه، بالأحرى، فرصة.

ما من رئيس وزراء إسرائيلي سوف يجرؤ على خوض معركة مع ناخبين لكي يمنعهم من حقهم في ممارسة الديمقراطية. وفي الواقع فإن معركة كهذه يجب أن تكون أمنية من أسمى الأماني لكل الذين يريدون أن يكشفوا للعالم ما هي طبيعة هذا الاحتلال الفاشية.

وحده رئيس الفشل هو الذي يريد أن يأخذ الأمور "من قصيرها"، لكي ينجو برئاسته، ولكي يواصل مسالك النرفزة.

لو شاء الرئيس عباس أن ينتحر على رؤوس الأشهاد، فالطريق هي أن يعلن تأجيل الانتخابات بذريعة أن إسرائيل ترفض إجراء الانتخابات في القدس.

السؤال الذي يطرحه فتحاويون من "تيار الإصلاح الديمقراطي"، ومن مختلف أطراف الحركة الوطنية الفلسطينية، هو: لماذا نحن بحاجة إلى موافقة إسرائيل على ممارسة حق من حقوقنا الشرعية؟ لماذا الإذعان لإرادة الاحتلال؟ أليس من واجب كل حركة وطنية أن تذعن لإرادة شعبها أولا؟ أم أن الرئيس عباس يخاف من قوائم "فتح" الأخرى التي لا سيطرة له عليها؟ أفهل يرى في "قائمة المستقبل" التي يدعمها محمد دحلان العدوّ الأول الذي لا عدوّ من بعده ولا قبله؟ أم تراه يخاف من قائمة ناصر القدوة، القيادي الذي طرده من مركزية فتح كما فعل مع دحلان؟ أم هل بات يرى في الأسير مروان البرغوثي شبحا يهدد رئاسته؟

ما من شيء في كل هذا يجعله رئيسا صالحا لقضية مقدسة كالقضية الفلسطينية. هذا رجل لم يعد قادرا على الترفع، فنزل إلى أدنى صغائر المشاعر ليجعل منها هي محركه الأول، محرك لسانه، ومحرك أعصابه الفائرة.

ومن ورائه، فيما يبدو، مطايا يجرؤون على إطلاق النار أيضا، لكي يبلغ الخزي بالخزي حدًا لم يجرّبه أحد.

يوم تعرض منزل ومكتب المحامي الفلسطيني حاتم شاهين في مدينة الخليل عضو قائمة المستقبل للانتخابات ثارت كل براكين الأسئلة: أفهل صارت حركة "فتح" تخشى من حركة "فتح" إلى هذه الدرجة؟ وهل ضاقت السبل على الخائفين من الخسارة بحيث رفعوا السلاح؟ وهل خسروا النقاش لكي يربحوا أصداء الرصاص؟

الفلسطيني الذي يهاجم فلسطينيا لأنه يمارس حقه المشروع، ماذا يُبقي للاحتلال من صفات الجريمة؟ وإذا ما نظر إلى نفسه أفهل يرى ما ينتسب لفلسطين؟

شاهين وصف مرتكبي الاعتداء بأنهم من خفافيش الظلام، إلا أن هناك من خفافيش النهار مَنْ جعلوا التحريض ضد التغيير صنعةَ بغضاء تَغمسُ بالدم كفّاً كان من الأولى أن تعرفَ الفرق، على الأقل، بين السلطة والاحتلال، لا أن تجعلَ الاحتلال سلطةً، ولا السلطةَ احتلالاً.

فهل بلغ التردي، هذا المنحدر، لكي يكشفَ عن عطب في السياسة والقيم؟ أم هل بلغ الهاويةَ حتى جاز للفلسطيني أن يضرب فلسطينيا لعله يكسب مقعدا في برلمانٍ قد لا يأتي؟ أم تراه يدافع عن سلطة لم تُثبت جدارتها في السياسة قدر ما أثبتتْ جدارتها في الترهيب؟

ألم يكن قدرُ الفلسطيني أنه مكشوفُ الظهر حيال الاحتلال؟ ولكنْ ها هو الآن مكشوف الصدر حيال سلاح الشقيق وسلطته أيضا فماذا بقي للاحتلال أن يفعل، إذا تكفل بفعله هذا الشقيق؟

وهل كثيرٌ على الفلسطيني أن يختار لنفسه قولاً آخر، أو قائمة أخرى، أو مستقبلا آخر؟ هل كثيرٌ عليه أن يخرجَ من دائرة القطيع؟

ما من فلسطيني إلا ويعرف أن أصابع الجريمة تمتد إلى حيثما يعرف الجميع. وما من فلسطيني إلا ويُدرك أن النهايات التي تبرّأتْ مِن ملح الأرض، شاءت أن تنتسبَ إلى الفضة، وأن تنتمي إلى كيس الدراهم كي تبيع الأرضَ والأخلاقَ والناسَ والمسيح معا.

تلك هي القضية. إنها قضيةُ الفضة التي أصبحت سلطةً على فشل. فاختارت الجريمة لتكون دليلاً على طبيعتها.

ولكنها سلطةُ خوف. تحاولُ أن تجعله وسيلتها، إنما لأنها غارقة فيه. ترتعدُ فرائصُها من كل قول آخر فتطلق النار ارتجافا نحو أيّ هدفٍ.

وما من سياسة في هذه السياسة. فلما ضاقت عليها السبل أطلقت النار على نفسها، بما فضحتْ نفسَها فيه.

وليست "قائمةُ المستقبل" إلا واحدة من قوائمَ شتى، ولكنها نالت ما تستحق من شرف المباهاة بأنها هي الدليل. إنها "فتح" التي تجاور "فتحا"، فصارت تخاف منها "فتح" الثالثة الأخرى.

ولكن، لا خاف مَنْ قصد الاعتداءُ أن يُخيفهم. ولا هم تخلوا عن صدرهم المفتوح لكل قول أو موقف أو حتى رصاص.

ألم يكن قدرُ الفلسطيني أنه مكشوفُ الظهر حيال الاحتلال؟ ولكنّ ها هو الآن مكشوف الصدر حيال سلاح الشقيق وسلطته أيضا. فماذا بقي لَلاحتلال أن يفعل إذا تكفل بفعله هذا الشقيق؟

سؤالٌ موجّهٌ لمَنْ سيطلقون النار مرة أخرى. ولكنه سؤالٌ لا تعرفُ جوابَه إلا الصدور.

ومن ثم، فماذا بقي للاحتلال أن يفعل إذا بات الفلسطيني، وفق سلطة الفشل، بحاجة إلى أن يطلب الإذن من الاحتلال لكي يمارس أدنى حقوقه المشروعة؟

لقد آن لهذه السلطة أن ترحل.

ولقد آن لفارس الفشل أن يترجل وأن يترك شعبه يمارس حقه كما يشاء، في صناديق الاقتراع أو في معارك الساحات على حدّ سواء. ثم فليأخذ قدرته على شراء الضمائر بإعادة توزيع المناصب معه. إنه يغرق، ولسوف يغرق معه كل مَنْ يتعلق بقشته.